أجب . وفتح الباب بعد لحظات قصيرة ، ودخلت أم حسن حاملة طبقا عليه كوب ماء وفنجان قهوة . وكانت بندقية تتدلى من كتفها . وضعت الطبق قرب السرير ثم خرجت . تشربت القهوة . وقرع الباب من جديد بعد بضع دقائق . لم أجب . فدخلت أم حسن واستردت الطبق ، ثم خرجت .

ما سبق هو وصف للتصرف البسيط والانيق الذي تتحلى بـه امراة فلسطينية مـن الشعب . وشاهدتها في اليوم التالي جاثية وهي تعد بعض الحلوى . واستأذنتني بالدخول ، وبعد التحية ، سألتني ان كنت جائعا . ولما أجبت بالنفي الحت كي تعد لي كوب شاي ، ولكنها رفضت أن تشرب هي : فالشمس كانت قد أشرقت . ثم ابتسمت وقالت : « الله » ! . وبدا لي خطيرا الا يدرك المسؤولون الحـد الذي تكف النساء بالتصرف عنده كشرقيات ، حسب التقاليد . وباستطاعتي سرد أمثال أخرى عن حرية المراة الفلسطينية ، على الاقل في الوقت الحاضر .

وفي شيء من الحدة ، يقول لي عصام ، الـذي يحاول عقلنة مفهـوم الثورة ، والثورة الفلسطينية بالتحديد : « الفلسطينيون بشكل عام فلاحون . علينا اذا ان نعود لنعمل في ارضنا . اما في الدول العربية الاخرى ، وهنا في باريس ، فنحن مقتلعون من الجذور » . ويقول ذلك بالانفعال نفسه الذي لمحته على وجه فدائي شاهد أنوار الخليـل التي كان يشير اليها من ضفة الاردن . والانفعال حقيقة بالتأكيد ، وهو ناتج عن النفي ، ولكننا اذا امعنا النظر بعض الشيء في الامر ، وجدنا ان فكرة الجذور هذه التي يعتبرها عصام اساسية هي في الواقع عابرة . ويتابـع عصام : « الفلاح سعيـد بفلاحة ارضه » . « هذا صحيح . ولكن صحيح ايضا ان الولد او الاولاد ، عند وفاة والدهم الفلاح ، او حتى قبلها ، لا يعودون يأبهون بالارض ، وبالعمل فيها ، فيبيعون المنزل والحقل ليعملوا في المدينة عند « رينو » ، وليقضوا عطلتهم في اسبانيا او اليونان » . ويقر عصام بذلك .

أود ان اصفي هنا حسابي مع فيلسوف لبناني قال لي يوما : « على الثورة الفلسطينية ان تتعرب اكثر فأكثر . فالعروبة كانت دائما ثورية » . وكنت قد اجبته : « أتمنى عكس ذلك تماما : ان يصبح العالم العربي فلسطينيا اكثر فأكثر ، نظرا لكون الفلسطينيين هم الشعب الوحيد في العالم العربي ، اذا استثنينا مثالي ظفار واريتريا ، الذي برهن عن تصرف ثوري » .

ربما لعبت العروبة فيما مضى دورا ثوريا : لا أعلم . لكن ما اخشاه اليوم هو ان تعود بنا العروبة الى حنين ساحر بقدر ما هو خداع . اذكر سيدة لبنانية ثرية كانت تستعيد امامي بشيء من الحماسة وقائع معركة بدر وامجاد الامويين . فاذا كانت امثال تلـك الاحداث ما زالت عالقـة في ذهـن عامة الشعب ، فذلك يعـود في الغالب لمفهـوم العروبة وما يحمله من ترسبات الماضي . ويمكن اعتبار تاريخ العرب اسطورة ، لمـا تمتزج فيه الحقائق بالخيال ، لكنها اسطورة قد تعرقل العمل الثوري . فاذا كانت الثورة الفلسطينية قادرة على اختيار العناصر التاريخية التي تقدمها كنماذج ضمن خط ثوري محدد ، فاني أشك في مقدرة العروبة على التصرف بالشكل نفسه : فهمها الاكبـر هو اثارة عواطف البورجوازية عبر امجاد التاريخ السالف .

الاردنيون والفلسطينيون

ثم رحنا نستعرض الاخطاء التي ارتكبتها المقاومة ، واخطرها اخفاقها في اقامة رابطـة مصلحة مشتركة بين الجماهير الاردنية والفلسطينية . كان بمقدور هـذه الجماهير ان تفرض نفسها اذا اتحدت لا برابطة العروبة وحسب ، بل بواسطة عمل تثقيفي جـدي وثابت ، وبواسطة المشاركة والاعمال الجماعية . وعوضا عن ذلك كان هناك من جهة ، الفدائيون الفلسطينيون ، المسلحون ، والمتباهون بثيابهم المرقطة ، والمتجاهلون كليـا